الفصل الثاني

قيام الدولة الجلائرية في العراق

obeikandl.com

obeikandl.com

وهي حكومة الشيخ حسن الجلائري (الكبير) الذي كان ابناً لعمة السلطان السابق من نسل هولاكو (السلطان أبو سعيد) ، والجلائريون قبـيلة من المغول ، استطاع الشيخ حسن الجلائري أن يستقل سنة ٧٧٣٩هـ ببغداد بعد وفاة السلطان المذكور ، ثم حاول توسيع دولته لتشمل أرجاء العـراق حيث كـانت القبائل العربية في هذه البقعة أو تلك تستغل كل فرصـة سـانحة من ضعف الحكومات في بغداد فيقوم رؤساؤها بتكوين سلطة محلية ، فقضى على حكومة عربيـة في مناطق الحلة ثم وجه أنظاره خارج العراق الى أذربيجان ثـمَّ الى بلاد التّر٥٨ . وتعرض العـراق خلال حكم هذه الدولة الى هجمة تتارية جديدة ومكررة بقيادة تيمورلنك أعـاد فيها تخريب ما عُمِّر خلال الفترة السابقة ثم عاد السلطان الجلائري بعـد انسحـاب جيش تيمور لنك مـن العراق ، ولم تلبث أن ظهرت في أذربيجان حكومة جديدة لإحدى قبائل التركمان وهي قبيلة الخراف السود .

دولتا التركمان (الخروف الأسود والخروف الأبيض)

في أوائل سنة ٨١٤ هـ (١٤١١م) استولى جيش قبيلة الـ (قُراقوينلو) وتعني الخروف الأسود أوسود الخراف على الأصح ، على بغداد فأنهت حكم المغول فيها لكن هؤلاء عادوا يهددون استقرارالعراق بين سنتي ٨٢٥ ـ ٨٣٥ هـ ، وقد عانت بغداد والعراق في هذه الفترة من الخراب والفسـاد والتنازع بين أمراء الأسرة الحاكمة وتعرضت لنوبات متكررة من الخراب . وحوالي سنة ٨٧٣ ـ ٨٧٤ تقدم جيش آخر لقبيلة أُخرى من التركمان

٥٨- انظر الرفيعي ص٨٧١ وص٩٧١١.

هي القبيلة المسماة (آق قوينلو) أي الخراف البيض أو بيض الخراف على الأصح لاحتلال بغداد وشهد العراق فترة من الاستقرار خلال السنوات التالية حتى سنة ٨٨٢ ثم عادت الفتن والصراعات لتكون تمهيداً بائساً لاحتلال بشع هو الاحتلال الصفوي .

ملاحظات عامة حول الفترة منذ سقوط بغداد

بسبب الاحتلال والمعارك المستمرة وتدهور الأحوال وعدم الاعتناء بالأنهر والقنوات أخذت ظاهرة الفيضان تتكرر ، وكانت» أعظم الأعمال التهديمية التي ارتكبها هولاكو هي التخريب المتقن في السدود والأنهار ونواظم الإسقاء التي كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد٥٩ « وغرقت بغداد في السنوات ٦٧٦ و٦٨٣ و٧٢٥ وغرقت الحلة والكوفة عام ٦٨٥ وانعدمت المستشفيات فساعد ذلك مع كثرة القتل والظروف المعاشية السيئة على توطن الأوبئة وتكرار وقوعها . وكانت الضرائب كثيرة وثقيلة تؤخذ على الرؤوس (أي عدد النفوس)وكذلك ضريبة الخراج وضريبة الأسواق والعقارات وعلى الأوقاف وكان الجنود يفرضون إقامتهم على الناس في كثيرمن الأحيان . والملحوظ أن كل ذلك كنتيجة طبيعية قد أدى الى انتكاس التحضر وانتعاش البداوة في المجتمع العراقي ٦٠ .

الغزوالجديد والاحتلال(الصفوي)

ينتمي الغازي اسماعيل الصفوي الى أسرة تركمانية يزعم البعض أنها أسرة علوية كان جده صفي الدين شيخاً لطريقة صوفية ،وتزايد أتباعه في أنحاء أذربيجان وقد احتمت هذه الأسرة لدى حسن الطويل زعيم قبيلة الخروف الأبيض المار ذكرها وازداد نفوذهم بانتصار هذه القبيلة ، وعندما ظهرت حالة الفوضى والتمزق في الحكومة المذكورة قام اسماعيل الصفوي بقيادة جيش من أتباعه التركمان فاستولى على أذربيجان ثم

٥٩- ستيفن هيمسليلونكريك/ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص٧٢

٦٠- انظر العراق في التاريخ ص١٥٥ .

على إيران وجعل عاصمته تبريز ثم توجه الى ديار بكر واتخذ لنفسه لقب الشاه٦١ ثم توجه الى العراق . تميز اسماعيل الصفوي بسلوك دموي لايقل وحشية عن المغول ويمتاز عليهم بالتعصب الطائفي الذي دمغ سلوكه بما يتنافى مع السلوك العلوي العربي المتسامح والمتعفف عن الوغول في الدماء ، فقد فرض عقيدته على سكان تبريز بحد السيف وقضى على علماء الدين في إيران٦٢ وأمر بذبح الوفد الذي أرسله إليه سلطان الـ(الآققوينلو) للتفاوض على الاستسلام قبل أن يدخلوا عليه فذبحوا عن آخرهم ،وقد استفاد من التهديد البرتغالي للبحار العربية فتقدم الى بغداد بجيش كبير أنزل الفظائع بالقرى التي احتلَّها . ورغم أنه دخل بغداد دون حرب فإنه أمر بذبح أعداد كبيرة من السكان وكانت تلك المذبحة بدون سبب عسكري بل لمجرد التعصب الطائفي ولفرض معتقده الخاص على العراقيين .. ففي الوقت الذي قرب طائفة معينة وأنعم على من ينتسب اليها سواء في الأرياف والبوادي أوفي المدن فإنه ضرب الآخرين واستباح دماءهم سواءً كانوا من أهل المدن أو من القبائل وخرب مزاراتهم وهكذا غرس الفتنة الطائفية بيديه الملطختين بالدماء ليرعاها بعده ابنه طهماسب ومن جاء بعده من شاهات الصفويين وغيرهم في سلوك منظم ومتشابه كوَّن في النهاية مدرسة للحقد والتفرقة نمت في إيران وطبقت دروسها وأفكارها في العراق وعلى سكانه كلما لاحت علامات ضعف السلطات فيه٦٣ .

٦١- اكتسبت قبائل المغول والتركمان الثقافة الفارسية ثقافة لها بعد استقرارها في إيران .

٦٢- انظر تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ ص٧٦٣

٦٣- انظر /العراق في التاريخ ص٥٦٥ وتاريخ العراق بين احتلالين ج٣ ص٥٣٠ و١٥٣ و٨٦٣ ، وأربعة قرون من تاريخ العراق ص٢٣حيث يقصر السيد لونكريك من قتلوا في بغداد على علماء السنة ، والرد عليه أن المؤرخين الذين ذكر أكثرهم العزاوي في الصفحات المشار إليهاذكروا قيامه بمهاجمة القبائل وهي لاتشتهر بوجود علماء فيها مما يوسع دائرة الجريمة الصفوية عما ذكره .

العثمانيون والحرب مع الصفويين

ينتمي العثمانيون الى إحدى القبائل التركية واستطاع جدهم عثمان تأسيس إمارة قوية تحت رعاية سلطان (قونية) السلجوقي في بلاد آسيا الصغرى ،وعندما استطاعت القبائل الذهبية تدمير دولة (قونية)أعلن عثمان نفسه سلطاناً واتخذ مدينة (يني شهر) عاصمة له ونشأت هذه الـــدولة الجديدة في عصر تفكك الامبراطوريتين المجاورتين السلجوقية والبيزنطية ٦٤ ممـا فسح لها المجال للتوسع شرقاً وغرباً بعد أن صمدوا بوجه تيمورلنك وكذلك تمكنوا من التوسع في أوروبا حتى وصلوا الى جنوب إيطاليا ثم التفتوا الى تهديد الصفويين لحدودهم من جهـة الشرق فدحروا الصفويين في معركة جالديران ، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على الشاه الصفوي الذي فرَّ جريحا تاركـا عاصمته نهباً للعثمانيين الذين انسحبوا منها بسبب انتشار الأمراض فيها ، وهكذا خضعت الأجزاء الشمالية والغربية مـن العراق للعثمانيين .

لقد برزت الدولة العثمانية إذن كقوة سنية في مواجهة الدولة الصفوية الشيعية التي سلكت منهجا طائفياً مقيتا في بغداد التي وقـع فيها انقلاب على الحـاكم الصفوي أدى الى قتله .. ثم اضطُرَّ أهل بغداد الى الدفاع والاعتصام ببغداد أمام هجمات الشاه الجديد طهماسب ، وتـمَّ إرسال رسائل من بغداد الى السلطان العثماني لبسط حمايته على بغداد التي قد استعادها الصفويون بعد مقتل حاكمها المعادي لهم والمعروف بأنه (ذو الفقار) على أيدي أخوين له ، واتصل الشاه الصفوي بملك هنغارية لتوحيد الجهود ضد العثمانيين لكن هؤلاء بعدما دحروا الهنغاريين جهزوا جيشا الى بغداد (بعد أن احتلوا تبريز) فهرب حاكمها ودخلها العثمانيون بدون قتال وأمروا بتعمير المقامات المقدسة دون تمييز ٦٥. إن توجه العثمانيين لايمكنإعزاؤه الى مجرد عامل التوسع بل

٦٤- الرفيعي / العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية ج١ ص٩٤٢ .

٦٥- انظر /أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث / الصفحات ٣٣ الى٩٣ .كذلك تاريخ العراق بين احتلالين ص٣٧٣ ، والعراق في التاريخص٧٦٥ وص٨٦٥ والصفحات التالية .

جاء تلبية لمتطلبات ستراتيجية تتعلق بالدفاع الناجح عن بلادهم ولكنهم .كما يبدو لي .أسدوا الى العراقيين خدمة لا تنكر... بتخليصهم من حكومة منحازة ودموية وغير عادلة وعنصرية . ويبدو لي أن العائلة الصفوية اتخذت (المذهب الجعفري) لتتميز دون الجماعات المحيطة بها ودفعها تفردها بهذا المذهب الى اتباع سياسة التعصب والقسوة البالغة وهي من صفات القبائل الآسيوية لتحافظ على كيانها وسط المحيط غير المنسجم معها فكانت الحصيلة تراثاً من المذابح والمعارك المتواصلة وانقساما جديدا في الصف الاسلامي استفاد منه أعداء الاسلام .

الأوضاع في العراق عند دخول العثمانيين

لقد دخل العثمانيون بغداد دون قتال بعدأن هرب حاكمها وقررأركانه الاستسلام وإلقاء السلاح أمام جيش العثمانيين فأقام هؤلاء حكمهم على أنقاض الحكم الصفوي الذي اتخذ العنصر التركماني مادة له لينهي حكما شقيقاً له .. فيما بدا أنه سلسلة لاتنتهي من الدول التي تقضي على دول شقيقة لها منذ أن توفي السلطان الأخير من سلالة هولاكو فيما كان الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي متواصلاً منذ قيام الحكم المغولي لكن لابد لنا أن نتساءل عن الفوارق بين هذه الجماعات المتشابهة في أُصولها والمتناحرة فيما بينها وطبعاً لابد من الإقرار بوجود عامل الطمع لكن جوهر السؤال هو هل يكفينا هذا العامل لتفسير كل هذه السنوات من الحروب والمعارك الدموية المتواصلة تقريباً والتي قضت على أجيال كاملة ، لقد تشبع المغول بالثقافة الفارسية وخصوصاً حكامهم وينقل بعض المؤرخين أن حكام المغول قد اتبعوا نهج التشيع ومذهبه فينقل الباحث عبد الأمير الرفيعي أن السلطان المغولي محمد خدابنده تحول في سنة ٧٠٧ هـ وأعلن اعتناقه مذهب الشيعة الاثني عشرية ٦٦ ، وينقل عن أحد المؤرخين أن هذا السلطان حاول حمل الناس على الدخول في مذهبه الجديد وهذا ما سبب وقوع الفتن ثم ينقل عن مؤرخ آخر تعليلاً لتحول السلطان بتزايد عدد الشيعة وتحسن أوضاعهم (وذلك في

٦٦- انظر الرفيعي المصدر المذكور ج١ ص٠٦١ وص١٦١ وص٢٦١ .

أذربيجان الحالية دون باقي أقاليم إيران) والحقيقة أن مـا ذكره هذا المؤرخ يبدو مناقضا لسيرورة الأحداث التـاريخية فالمعهود أن يكون الناس على دين ملوكهم فيكون انتشار هذا المذهب جاء تبعاً لتوجه السلطان وليس العكس . وفي رأيي المتواضع أن الخلافات المذهبية كانت السبب وراء الفتن٦٧ التي تواصلت منذ وفاة خدابنده بل ربما كانت سبباً لوفاته واذا كان الوزير الشيعي الذي استطاع إقناع غازان بدخول الاسلام قد اتهم بالوقوف وراء وفاة خدابنده فهذا يثير الشكوك في طبيعة الأحداث التي لايمكن الحكم عليها بدون معرفة أسرار تلك الحقبة فلاتبقى إلا الظنون . ويبدو لي أن القوم تفرقوا بين داع الى المذهب الجديد وداعين الى البقاء على المذاهب القديمـة فنشبت بينهم النزاعات التي أججها اختلاف المصالح وتناقضها وتولد المطامع تعاظمها ، وهذا ما يفسر لنا لجوء اسماعيل الصفوي الى فرض مذهب التشيع على أهل إيران وباقي الأقاليم التي تمكن من احتلالها ، وارى في العامل المذكور سبباً رئيساً من الاسباب التي أججت الصراعات دون أن نستثني منها الصراع بين العثمانيين والصفويين الذي استمر على أرض العراق قرون طويلة ، هذا في الجانب الاجتماعي العقائدي ، أما في الجانب الاجتماعي الاقتصـادي فنلاحظ أن الأحوال كانت تتدهور بمرور السنين وتكرار الحروب وتجدد الغزاة ، وإذ كان الاقتصـاد مؤسساً على الزراعة ثم التجارة والمهن والحرف الأُخرى ، ولأن العامل الاقتصادي الأقوى ممثلاً بالزراعة التي تتطلب عملاً دؤوباً واصلاحات متواصلة للتخلص من عوامل التخريب الطبيعية وهذا ما لم يتوفر إلا نادراً في أيام الجلائريين مرة ونادراً أيضا في دولة الخروف الأبيض مرة أخرى ولكن في المرتين لم تستطع أن تزيل آثار الخراب بل التخريب البشري نـاهيك عن عوامل التخريب الطبيعية ، فتدهورت الزراعة . أما التجارة والمهن الأخرى التي تتطور في المدن فإنهـا تتطلب وجود الأمن والاستقرار .. وهما عاملان لم يتوفرا إلا في سنوات قليلة جداً بل نادرة ، وهكذا فالطبيعي والمتوقع أن يكون الاقتصاد خرباً ومنهاراً .

٦٧- انظر مانقلهالرفيعي عن شبولر حول دور الدراويش الشيعة المتعصبين في الفتن إضافة الى آخرين ، المصدر المذكور ص٣٧١ .

وبسبب الصراع الطائفي المستحدث فقد أصبح سكان المدن خصوصاً بغداد وما جاورها مرة أُخـــرى لقمة سائغة في الصراعات المتجددة كلما تبدلت الطائفة الحاكمة فلاغرو أن تصبح المدن قليلة السكان و يهجرها أصحاب المهن والصناعات كما أنه ليس من الغريب في ظل ظروف تجمع بين الاضطراب وقلـة النوال أن تلجأ القبائل الى أعمال عدائية كالسلب والنهب والغارة على المـدن لتوفير لقمة العيش ولو كان عليها نثار من الدماء ، وبذلك تلاشى بناء اجتماعي كـان يقوم على التمدن والأمن والتآلف مع الجيران وتشابك العلاقات وقيامها على أسس جديدة بتأثير السكن المشترك .. كل هذا انهار بمرور السنين ، فهل استطاع العثمانيون أن يعالجوا هذه الأوضاع المتردية ؟ ..

اهتمامات العثمانيين

لقد اتخذ العثمانيون العـــراق (مهما كانت النوايا طيبة) قلعةً تحمي ظهورهم من ضربـات الصفويين الذين عـادوا لاحتلال العراق بعد تمرد أحد القادة العسكريين (بكر صوباشي) وإصراره على التمسك بالسلطة محاولاً الاستقلال ، وعـادت المذابح وأعمال التعذيب٦٨ وذلك في العام ١٠٣٣ هـ ١٦٢٣ م ليدوم هذا الاحتلال خمسة عشر عاماً تقريباً انتهى على يد السلطان مراد الرابع بعد معركة هائلة أعقبت محاولات فاشلة طوال فترة الاحتلال وسبب الاحتلال وما رافقه من حروب خراباً ودماراً كبيراً خصوصاً في بغداد٦٩ و مع ذلك لم يتخلّ الصفويون عن أطماعهم في العراق بل استمرت مطامعهم ومحاولاتهم التوسعية تجاه العراق ولم تنقطع كلما ظهر في إيران حاكم قوي ولذلك ظلت اهتمامـات الولاة في العراق ذات طابع عسكري يعتمد أساساً تحصين المدن والعناية بالأسوار وبنـاء الأبراج وحفر الخنادق .. وكانت الدولة العثمانية مع ذلك توفر الفرصة أحياناً لبناء المسـاجد وتعمير الخانات لمبيت المسافرين الغرباء وإنشاء مخازن الحبوب والغلال وتعمير الأسواق في حالات نادرة لكن ذلك لم يكن بالتأكيد خطًّاً ثابتاً

٦٨- انظر / العراق في التاريخ ص١٨٥ .
٦٩- المصدر السابق ص٦٨٥ .

للسياسة العثمانية في العراق ، وقد شهدت فترة حكم المماليك في العراق استقراراً نسبياً للحكم بيد أسرة واحدة تميزت بالقوة وتصدت لأطماع إيران وشهد حكمها انتفاضات عربية لم تنجح في تنصيب حاكم عربي ، لكن المماليك استفادوا من قوة بعـض القبائل فأصبح لها رأي في السياسة ، كما تحسنت في هذه الفترة الأوضاع عموماً مما يبين أثـر الاستقرار السياسي في التطور ، كما شهدت هذه الفترة زيادة ونمو الوجود والمصالح الأوربية البريطانية والفرنسية وكذلك استحدث المماليك بناء السرايات والقصور والبيوت التي تحيط بها الحدائق الجميلة ونشطت المدارس والاسواق وظهرت المقاهي وتعاظم تأثير علماء الدين والمثقفين بتنامي روح المدينة من جديد وظهرت روح عربية متحركة ودخلت اللغة العربية الـدواوين والمراسلات السياسية وترجمت بعض الكتب الى العربية ونشطت الحركة العلمية والأدبية بعض الشيء .

عودة الحكم العثماني المباشر ومحاولات الإصلاح

لم تتوقف محاولات العثمـانيين لاستعادة الحكم المباشر في العراق طيلة فترة حكم المماليك وهـذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على الأهمية االسياسية والاقتصادية التي باتت توليها الحكومـة العثمانية وسلاطينها الى العراق فضلاً عن الأهمية العسكرية .. وفي هذه الأوقات تنامت علاقات العثمانيين بالدول الأوربية خصوصاً بريطانيا وفرنسا اللتان حاولتا لفترة من الوقت إظهار النوايا الطيبة وعلاقة الصداقة مع الدولة العثمانية لكن سرعان مانمت العلاقات مع ألمانيا بشكل أكثر دأباً ما أثار حفيظة البريطانيين (كما يبدو) الذين أصبح لهم وجود متكاثف يوماً بعد يوم خصوصاً بعد تأسيس حكومة الهند البريطانية الأمر الذي جعلهم يشعرون بتهديد لمصالحهم في الدولة العثمانية من قبل الألمان ، وظهر اقتناع السلاطين العثمانيين بضرورة إصلاح الجيش الذي أصبح بعيداً عـن مستوى الجيوش الأوربية وأصبح الإنكشاريون فيه يتحكمون بالسلطة في العراق مع ما عرف عنهم من فساد وإساءات لم ترض الدولة وأسخطت الناس ،

فألغي نظام الإنكشارية وتحولوا في وقت قصير نسبياً الى جيش يتبع نظاما جديداً بعد مقاومة طويلة للتغيير وكان مـن مؤشرات الحداثة ملبس الجيش الذي ارتدى اللباس المألوف في أوربا ، بدا الجيش العثماني الحملة على بغداد لاستردادها من المماليك .. وصاحب الهجمة العثمانية لاسترداد بغداد من حكم المماليك وقوع الطاعون ثم جاء الفيضان ليغرق بغداد ويدمر بيوتها فيما عسكر الجيش على مقربة ينتظر في ظل المناوشات استسلام المدينة المنكوبة لقدرها الذي جـــاء محتوماً فعادت بغداد الى الحظيرة العثمانية المضطربة برغم محاولات الاصلاح ليعيث فيها الولاة والمتنفذون فساداً في أرضها فلم تنفع مراقبة العاصمة العثمانية ولا الشكاوى المتواصلة إليها ولا تغير الولاة المستمر في كل عام طوال فترة امتدت الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث أخذ الدور البريطاني يظهر في تقديم خدمات النقل النهري وحيث عرضت جهات أوربية في مجال النقل والاتصالات واستطاع البريطانيون الحصـول على موافقة العثمانيين بصعوبة لتنفيذ خط التلغراف عبر العراق ليربط أصقاعه بالشرق والغرب ، وحاولت شركات ألمانية وبريطانية مدَّ خط للسكة الحديد عبر أرض العراق ليصـل الى موانئ الخليج في البصرة والكويت لكنها لم تنفذ إما بسبب نقص التمويل الـلازم أو لأن البريطانيين كانوا يخشون من امتداد نفوذ ألمانيا الى المنطقة المليئة بالثروات الباطنة .

محاولات الإصلاح في العراق

حاول الوالي ناظم باشا تقديم بعض الإصلاحات في الطرق والمعابر التي كانت على حالها في القرون الغابرة ، كما أنه اصطحب معه بعض الأسلحة الحديثة الفتاكة وعدداً كبيراً من الضباط وبعض ضبـاط الصف ليكونوا معلمين في مكاتب الجندرمة والشرطة وضباط الصف وذلك لاهتمام الدولة بإخماد حركات العشائر المرتبطة كما يبدو بمحاولات النهوض والاستقلال العربي ودعواته التي أثارت مخاوف العثمانيين ٧٠ . كذلك حاول

٧٠ - انظر / العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين ج٨ ص١٢٢وص٣٢٢ .

من بعده الوالي نامق باشا بذل بعض جهود التحديث والإصلاح لكن أبرز الإصلاحات وقعت في عهد الوالي المصلح مدحت باشا بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٢ .

وصل الوالي مدحت باشا الى بغداد والياً في ظروف شهدت تناقضاً حاداً بين توجه الدولة العثمانية الى التحديث ومواكبة التطور الأوربي وبين التخلف الشنيع في أحوال ولايات العراق ومن جهة أُخرى بين الميل العثماني الى تثبيت دعائم الحكم المركزي في الولايات المختلفة وبين تزايد نفوذ الدول الأوربية المتنامي ومحاولة بعضها احتلال ولايات عثمانية واتخاذ بعضها مواطئ أقدام لها على سواحل الدولة العثمانية أو قريباً منها قدر إمكانها .. وربما كان تعيين مدحت باشا لولاية بغداد آخر محاولة لاستعادة نشاط وحيوية الحكم العثماني في الولايات البعيدة عن العاصمة للحيلولة دون وقوع ما لاتحمد عقباه.

أعاد مدحت باشا التنظيم الإداري في البلاد بشكل محكم ومتسلسل استناداً الى قانون الولايات العثماني الصادر قبل خمس سنوات (١٨٦٤) فارتبطت النواحي بالأقضية التي ارتبطت بالسناجق (الألوية) المرتبطة بدورها بالولايات التي أصبح مركزها ولاية بغداد ، وبذلك ترسخ الشكل الإداري للعراق الحديث .

وشكل الوالي في كل وحدة ادارية مجلساً محلياً شبه منتخب ابتداءً من النواحي وحتى الولايات برئاسة أكبر موظف حكومي في الوحدة الإدارية وعضوية بعض الموظفين والأهالي وشكلت المجالس البلدية وأصبح عدد بلديات بغداد ثلاث بلديات ، وأكَّد الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية ، وتم في السلطة القضائية استحداث ديوان التمييز للقضايا المستأنفة ، وطبق نظام القرعة في المدن لاختيار المكلفين بأداء الخدمة العسكرية (واستثنى القبائل) ولجأ الى القوة في تطبيق التجنيد ، وراعى خدمات الجيش فأنشأ معملاً لنسج الملابس والخيام وآخر للطحين وأعدت الثكنات وورش الآلات ومعامل صنع البارود وفتحت مدرستان عسكريتان إحداهما رشدية (متوسطة) والأخرى

إعدادية لتخريج الكـوادر العسكرية . كما سعى ونجح في توطين القبائل بتوزيع الأرض عليها مقابل أقساط سنوية ميسرة وشجع على كري الأنهر وغرس البساتين فكافأ على ذلك بتمليك الأرض لمـــن يفعل ذلك . وتمَّ تسجيل الملكيات في دوائر الطابو أي التسجيل العقاري . كما تمَّ انشاء مدرستين حديثتين إحداهما مهنية هي مدرسة الصنائع والثانية لتخريج الموظفين وهي الرشديـة الملكية وساهم الأهالي في إنشائهما بالمال ،كما استوردت مطبعة حديثة لتقوم بطبع أول جريـدة عراقية (الزوراء التي صدر عددها الأول في ١١حزيران ١٨٦٩) ،كما كون إدارة للنقل النهري في دجلة والفرات كسرت احتكار شركة لنج البريطانية .ولا شكَّ أنه استفاد من جهد ولاة سابقين لكنه يشكر على نشاطه وحرصه على مراقبة سير العمل في مختلف الأماكن النـائية . كما تمَّ في عهده إنشـاء مستشفى عام ودائرة للمعارف وأخرى للنفوس ومحاجر صحية٧١ .

إصلاحات أُخرى٧٢

ازداد عدد المدارس الابتدائية في نهاية القرن التاسع عشر ، كذلك المدارس المتوسطة حتى بلغ مجموع المدارس قرابة المئة . وأُنشئت متوسطـة للبنات٧٣ سنة١٨٩٩ وفي العام التالي أصبح عدد هذه المدارس أربعاً ، كما افتتحت مدرسة خـاصة بالمعلمين (دار المعلمين) ومدرسة تطبيقات تابعة لها . وصدرت صحف أهلية كان لها أثر كبير في إشاعة الوعي القومي ، كما تم إصلاح نظام الجندية سنة ١٩٠٩ ، وأُنشئت غرفة تجارة بغداد عام ١٩١٠ وافتتحت سدة الهندية لتنظيم الري في الفرات الأوسط عام ١٩١٣ .

٧١- انظر / العراق في التاريخ الصفحات من ٢٤٦ الى ص٥٤٦ .

٧٢- انظر / العراق في التاريخ ص٥٤٦ . ووردت هذه المعلومات في المصادر الأخرى متناثرة .

٧٣- مرَّ إنشاء هذه المدرسة بصعوبات وعقبات كبيرة وكان وضع المرأة العراقية خصوصاً في المدن يجعلها محاطة بالتزمت وبحجب من التخلف أعيت دعاة الإصلاح وللإطلاع على وضع المرأة إبان العهد العثماني انظر / د . طارق نافع الحمداني ملامح سياسية وحضارية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر الصفحات من٣٦ إلى ١٧ .

القرن العشرين وظهور مؤشرات الوعي القومي

يعتقد صاحب كتاب (أربعة قرون من تاريخ العـراق الحديث) أن السياسة العثمانية والتركية القائمة على استبعاد اللغة العربية في دوائـر الحكومة والتعليم (الذي كان يستهدف أساساً توفير الكادر الحكومي) قد نجح في تأخير الـوعي القومي العربي لدى العراقيين وهذا صحيح الى حد ما لكن لم يمكن الوقوف في وجه ما هو محتوم . وكانت هناك حركة تعليم غير حكومية تعتمد اللغة العربية لتدريس القرآن والعلوم الدينية لكن هذه المدارس كانت تنظر الى الحكم العثماني على أنه حكم إسلامي وهي تعتمد الفقه السُّنّي الـذي يؤكد على طاعة ولاة الأمور (بغض النظر عن أصولهم) ولايعترف بالمعارضة إلا كنشاط فـردي هدفه وعظ الحاكم المسلم اذا أخطأ٧٤ وتنبيهه الى أخطائه ومظالمه على أن يكون من يقوم بذلك عالماً فقيهاً أي مثقفاً ثقافة تؤهله لعملية النقد وتمييز ما يقصد به المصلحة العامة عن غيرها من إجراءات التعسف . ولاشك أن استيراد المطبعة (وإن كانت وحيدة) وتأسيس الصحف كان بذرة للتطلعات الثقافية والوطنية العراقية وكان إصرار الحكومات العثمـانية على استبعاد اللغة العربية من نطاق نشاطات الحكومة في بغداد وحتى من ساحة القضاء سبباً لتذمر المواطنين ممن لهم مصالح أو قضايا أو متعلقات مع الحكومة وحتى عامة الناس . وكان ظهور الصحف غير الحكومية إضافة الى نشاطات بعض المثقفين على الصعيد الشعـبي والشخصيات العربية في مجالس المبعوثين العثمانية (المبعوثان) حيث اتخذ بعض هذه الشخصيـات مواقف وطنية قومية عروبية مثل السيد طالب النقيب والشاعر الكبير (معروف عبد الغني الرصافي) وما أشارت اليه البيانات المستندة الى الدستور وبيـانات حركة الاتحاد والترقي عـن حقوق القوميات التي يتشكل منها (الكيان) العثماني .. كـل هـذه العوامل وغيرها أدت الى تنـامي المشاعر القومية والوطنية العروبية لدى العراقيين وتنامي الشعور

٧٤- نص القرآن والسنة المطهرة على ذلك إلا اذا أمر الحاكم بمعصية الله فعندئذ لاطاعة له وللمهتم بذلك أن يبحث عنه في مظانه .

بالتباعد بين الشعب والسلطة العثمانية في العراق ، وعند وصول حزب الاتحاد والترقي (وقد انتمى اليه بعض الشخصيات البارزة من العراقيين وفتحت له فروع في كبريات المدن العراقية مثل بغداد والموصل والبصرة) الى الحكم سرعان ما تنكر لحقوق القوميات وتبنى سياسة التتريك مما هيج مشاعر العراقيين الوطنية العروبية وأعطاها دافعاً قوياً . وإذن فقد دخل العراق القرن العشرين بروح جديدة مستعدة لدعوات الحكم الذاتي والاتحادي (الفدرالي) بين تركيا والأقطار العربية .. التي تطورت الى دعوات للاستقلال والانفصال فيما بعد . وظهرت الدعوة لقيام مملكة أو خلافة عربية تضم دول العرب منفردة مجتمعة مرة ومنقسمة وذلك بحسب من يقف وراء تلك الدعوة مثل حاكم مصر أو أشراف الحجاز . وترافقت عدة عوامل لحسم الارتباط العاطفي مع الدولة العثمانية فقد دخلت الدولة العثمانية الحرب ضد الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا) وأعلن أميرالحجاز الحسين بن علي الثورة العربية على العثمانيين بمساعدة بريطانيا وانقلبت تركيا على (الخلافة) .. وأصبحت جمهورية فيما وقع العراق بكامل أرضه تحت الاحتلال البريطاني فأصبح الحكم العثماني في العراق جزءاً مطوياً من التاريخ .

الثورة العربية وتحرير الحجاز وسوريا

كان الحجاز يتمتع بالاستقلال الداخلي بعد اعتراف الشريف بركات أمير مكة بالسلطة العثمانية التي انتصرت على المماليك وأنهت حكمهم في مصر . واستمر الحال على ذلك زمناً ظهرت خلاله الحركة الوهابية التي تحالفت مع إمارة ابن سعود وكانت بمثابة حركة تمرد خاضت عدداً من المعارك ضد المجاورين ووصلت بعضها الى النجف وكربلاء في العراق مما حرك الجيوش العثمانية نحو الجزيرة العربية ، لكن إمارة مكة ظلت حكراً على العائلة الحسنية الشريفة التي أنجبت الشريف حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين ابن عون) الذي أصبح في سنة ١٣٠٩هـ عضواً في مجلس شورى الدولة

العثمانية (مجلس النواب) حيث تعرف به كبار رجال الدولة والشخصيات البارزة من العرب والترك وكان كما وصفه معارفـه رزيناً قوي الشخصية معتزاً بعروبته وبنسبه الذي يتصل بالحسن ابن أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما . وبعد إعلان الدستور صدر الفرمان السلطاني بتعيينه أميراً لمكة برتبة الوزارة ويبدو أنه كان مناهضاً لحزب الاتحاد والترقي أو أن تعيينه لهذا المنصب لم يرق لهم فوقع بين الطرفين شيء من العداء عند تشكيل الحكومة من قبل هذا الحزب٧٥ . وطد الأمير حسين نفوذه في الحجاز وكان يعتقدأن للعرب حـــق المشاركة في الحكم مع الترك٧٦ ، وضم صوته الى زعماء العرب المنادين باللامركزية وتلقى مذكرة من النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني جاء فيها « نحن نواب العرب في مجلس المبعوثان ، نقِرُّك على إمارة مكة ونعترف لك دون سواك بالرئاسة الدينية على جـميع الأقطار العربية « .. وتلقّى رسالة من طالب النقيب ممثل ولاية البصرة جاء فيها « إني مرسلٌ اليكم وثيقةً أمضاها ذوو الشجاعة والإقدام من إخواننا العرب يعرضون أن تدافعوا عن حقوق أمتكم ويعترفون لكم بالخلافة « ٧٧ .

تطورت الأحداث وتـأزمت العلاقات بين محور ألمانيا الذي انضمت اليه الدولة العثمانية فيما كانت الحكومة الإتحاديـة تتبع سياسة القتل مع كل من ينادي بالحقوق العربية وتجلّى ذلك في قيام (جمال باشا) السفَّاح بإعدام مجموعة من العرب في سوريا مما ولد لدى العرب إحساساً بالنقمة والغضب على الحكومة ، وكانت بريطانيا تتطلع الى ممتلكات الدولة العثمانية بعين الطمع وتسعى الى تفتيت وتشتيت القوة العثمانية .

عقد الحسين اجتماعا سرياً مع فريق من الضباط البريطانيين في بقعة منعزلة على شاطئ البحر الأحمر بدأ منه التفاهم مع بريطانيا وكان أساساً للمراسلات بين المندوب

٧٥- نوري السعيد /مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي(الدار العربية للموسوعات بيروت ٧٨٩١) ص٨.

٧٦- المصدر السابق ص٩ .

٧٧- المصدر السابق ص٠١ .

السامي في مصر(مكماهون) للاتفاق على قيام الشريف حسين بقيادة ثورة عربية على العثمانيين ، وقد « كان على بريطانيا مقابل قيام الثورة الشريفية أن تعترف باستقلال الأسرة الشريفية وأن تساعد على تحرير بلاد العرب من الأتراك بما في ذلك العراق وأن تنظر بعين العطف الى الاعتراف بقيام الخلافة العربية وتعيين (الشريف) الحسين (ابن علي) خليفة «٧٨

وهكذا فإن بريطانيا تعهدت بدعم ثورة العرب والمساعدة على تشكيل مملكة يحكمها الحسين وتضم العراق والشام والجزيرة العربية وأمدوه فعلاً بالمـال والسلاح والمشورة .

وبالمقابل فقد اشترطت بريطانيا اعتماد العرب على توجيهها ونصائحها وحدها وأن يعترف العرب بإجراءات بريطانية خاصة في العراق (نُصَّ على ولايتي بغداد والبصرة) و تتضمن الإشراف الإداري لدفع العدوان ورفع مستوى رفاه السكان المحليين وضمان المصالح المشتركة . وكان هذا التفاهم عاملاً مشجعا للبريطانيين للزحف قدماً باتجاه بغـداد ٧٩. إن هذا هو ما يبدو ظاهراً أو مرجحاً لكن هناك ما يدل على أكثر من ذلك حيث ينقـل فوستر عمَّن يصفه بأنـه شاهد عيان عراقي رسمي يتحدث بلسان موظف بريطاني وبعقلية استعمارية يقول (إننا نريد بغداد ، لقد كانت المدينة هي هدفنـا الأسمى الذي لايقاوم .إنها ستكون مساوية الى «غاليبولي» .ذلك لأن الاستيلاء عليها سوف ينقـذ الشرق المضطرب ، وبلاد فارس ٨٠ » لاحظ الاشارة التي تدل على وجود تحالف ضد العثمانيين بين الغرب وبين .. بلاد فارس! « ... ويصف ذلك بأنه سيؤدي الى استقرار القبائل وإلى زوال خطر انشقاق الهند من الداخل وهنا يتبين لنا أن الغزو البريطاني أضاف للأطماع الإستعمارية دوافع مـــن التطلعات الوطنية المحلية واالتأييد الإقليمي من قبـل إيـران وتبريرات أُخرى جمعت معـاً للتخلص من وجود الدولة العثمانية .

٧٨- فوستر / المصدر السابق ص٢٧ .

٧٩- ص37 .

٨٠- ص47 .

لقد تحدثت بريطانيا في اتفاقاتها مع الشريف حسين عن ولايتي بغداد والبصرة كمنطقة مرشحة للإشراف الإداري البريطاني على اعتبار أن ولاية الموصل ستضاف الى سوريا لتكون حصة فرنسا من أراضي الدولة العثمانية وفقاً للإتفاق بين الدولتين الغربيتين ، لكن هذا الأعتبار فقد قيمته في الواقع عندما قارنت بريطانيا جهدها العسكري في العراق الذي أوصلها الى ولاية الـموصل بالجهد الفرنسي الضئيل الذي بذل في الشام لمشاركة الجهد البريطاني القليل في تلك المنطقة والذي اعتمد على المقاتلين العرب لتحرير الشام بعد أن حرروا الجزيرة العربية و هكذا اتفق كليمنصو وزير فرنسا مع لويد جورج البريطاني على تحويل ولاية الموصل الى بريطانيا التي احتلتها بالفعل ٨١ ويبدو أن منح فرنسا حكم سوريا جاء إما رشوة أو مكافأة لها على موقف مهم (ربما حساب الأصوات في عصبة الأمم مثلاً) ليتسنى لبريطانيا أن تلعب كما تريد في الساحتين العراقية والفلسطينية وهو ما ستظهر نتائجه لاحقاً في اتفاقات النفط مع الحكومة العراقية في العراق ومنح وتحقيق وعد بلفور لإقامة دولة إسرائيل التي ظهرت فعلاً للوجود سنة ١٩٤٨ .

وقد تم تشكيل جيش عربي وأُطلقت الرصـاصة الأولى للثورة بمكة المكرمة في ٩ شعبان ١٣٣٤هـ.١٩١٦م .وكـان تشكيل الجيش العربي من الضباط العرب في الجيش العثماني خصوصاً من وقـع منهم في أسر الحلفاء مثل نوري السعيد وجعفر العسكري وكان جلهم من العراقيين ومنهم عدا من ذكرنا طـه الهاشمي وعلي الأيوبي وغيرهما ، وخاض الجيش العربي معـارك عـدة واستطاع أن يحـرر الجزيرة والشام من الأتراك بمساعدة محدودة من البريطانيين ، ولعب الشريف فيصل ابن الملك الحسين بن علي (ملك الحجاز) دوراً قيادياً في معـارك تحريرشرق الأردن وسوريا فيما احتفظت بريطانيا لقواتها بعملية تحرير فلسطين وكان دور الجيش العربي في ذلك دور اسناد البريطانيين وشن العمليات

٨١- فوستر / المصدر السابق ج١ ص٠٨ .

على الأتراك لتخفيف الضغط على الجيش البريطـــاني ٨٢ولاتخفى على القارئ اللبيب دوافع ذلك من الناحيتين السياسية التي تكشفت أسرارها بمساعدة البريطانيين لهجرة اليهود في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ثم إنهاء الانتداب في الوقت الذي امتلك اليهود من القوة ما يمكنهم من الدفاع عن دولتهم التي سرعان ما أعلنوها ، إضـــافة الى العامل الستراتيجي لإدامة التحكم بالطرق البحرية المؤدية الى السواحل المصرية على وجه الخصوص بما فيها قناة السويس .

النشاطات البريطانية في العراق في الفترة العثمانية

كان إنشاء حكومة إنكليزية في الهند تتويجا لنوايا توسعية غير مصرح بها من قبل بريطانيا التي تطلعت بأنظارها الى المنطقة العظمى الواقعة الى الشرق من البحر المتوسط والتي أمكن الوصول الى أطرافها المترامية بواسطة الطرق البحرية لكن هذه الحكومة ظلت تمثل نوعاً من الخاصرة الرخوة بوجود الدولتين العثمـانية والصفوية التي آلت الى دولة قاجارية في إيران قبل أن تشهد الانقلاب العسكري في أوائل القرن العشرين ، اذ تم استغلال الهند كموطئ قدم لتوسيع وتثبيت محطات نفوذ لبريطانيا في عموم المنطقة . . وقـد استطاعت بريطانيا أن تقيم علاقات قوية مع شيوخ القبائل العربية في الموانئ والمنـاطق المطلة على الخليج العربي والتي ربما كان أهمها البحرين والكويت ، فيما تميز العـراق لموقعه بين الطرق البحرية الرئيسة في المنطقة خصوصاً وقد بدا كل من الفرات ودجلة امتداداً للخليج العربي المفتوح على البحار والمحيطات وكونهما يقتربان كثيراً من سواحل المتوسط بحيث يصبح الربط بين ضفافهما وبين موانئ المتوسط قليل التكلفة نسبياً ويمكن ضمن هذا التصور فهم نشاطات كل من لنج (الذي أسس شركة للملاحة في دجلة بعدما درس و(مسح) النهر من أعاليه الى شط العرب) وكذلك القـائد في البحرية جيمس فلكس جونز الذي أعد تقارير وجداول تتعلق بأوضاع العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية إضافة للمسـح الطوبوغرافي . ويشير

٨٢- انظر مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية.

أحد مساعديه المدعو (كولنگود) الى طبيعة نشاطه فيذكر « إنني أنجزت تخطيط بغداد في ظروف جد عصيبة إذ كنت مضطراً الى العمل خفية٨٣ « ونستطيع من خلال تصور مثل هذه النشاطات السرية وتتابعها أن نفهم كيف توطد النفوذ البريطاني في العراق ولماذا بادرت الجيوش التابعة لبريطانيا بالتوجه الى الهجوم على أرض العراق قبل دخول العثمانيين الحرب الى جانب ألمانيا . في إحدى الوثائق البريطانية يشير القنصل البريطاني المعتمد في بغداد (الرائد نورمان سكوت) بتاريخ ٤ / ٣ / ١٩١٣ والوثيقة عبارة عن تقرير شامل مرسل الى السفير البريطاني في استانبول والى وزارة الخارجية الهندية (البريطانية في الهند)يشير الى نص حول أهمية العراق وولاية الموصل تحديداً كتبه ألماني يدعى روهر باكر ويقول فيه « لقد زرت منابع النفط في كركوك والمجاورة لها في (باباگرگر) فوجدت أن كلتا المنطقتين جديرة بالاهتمام أكثر من تلك التي تشابهها في الأراضي التي تقع عبر بلاد القفقاس في روسيا . واذا علمنا أهمية الدور الذي تلعبه منتجات النفط في روسيا على اعتبار أنها وقود للقاطرات والبواخر ، وكذلك لتشغيل المعامل فإننا ندرك مدى الفائدة الكبيرة التي للنفط كمادة منتجة للحرارة والضوء وعلينا أن نعلق أهمية على الظروف التي جعلت سكة حديد بغداد تمرُّ قريباً من مناطق النفط ، وإن الشيء الذي أخشاه أن الذهب الأجنبي (الأموال) والمنقبين الأجانب قد ينجحون في تأمين حق الأفضلية لهم « وهنا يضيف المعتمد البريطاني عبارة هامة وظريفة بما تحمله من تورية فيقول « على وزارة الخارجية ومجلس التجارة البريطاني العمل ما في وسعهما لتأمين قيام العاصمة البريطانية بتأمين مخاوف الدكتور(الألماني) روهر باكر»٨٤ . لقد جاء هذا الكلام ليؤكد المنافسة الحامية مع ألمانيا التي كانت تبدو أوفر حظوظاً منذ تبنيها مشروع سكة الحديد الى بغداد الذي عارضته بريطانيا بأشدّ ما استطاعت وتلى هذا المشروع توقيع معاهدة بين ألمانيا والعثمانيين وكان في هذا التعاون ما يقدم لنا تفسيراً

٨٣- العراق في التاريخ ص٠٤٦ .

٨٤- العراق في الوثائق البريطانية (٥٠٩١-٠٣٩١) ص٢٩

لوقوف الدولة العثمانية الى جانب ألمانيا ، كانت بريطانيا تتطلع للحصول على غنيمة لا تقدر بثمن .. و تريدها بلا ثمن .. ويعزّ عليها أن يأخذها غيرها بأيّ ثمن .

بريطانيا والخليج .. بداية القصة

شهد القرن السادس عشر تطور الاسطول البريطاني وانفتاح طرق الملاحة شرقاً وجنوباً ونحو الشمال الغربي في ذات الوقت الذي تطورت فيه الاساطيل الأوربية الأُخرى ، وراحت السفن البريطانية تتوغل نحو أعالي البحر المتوسط إلى مرافئ بيروت وقبرص .. وأخيراً حصلت شركة ليفانت على إجازة للعمل في تركيا في هذا العصر الذي شهد توجهاً أوربياً واضحاً نحو شرقي المتوسط٨٥ ثم بعد ذلك تخلص البريطانيون من تهديد الاسطول الإسباني ، واستطاعوا بواسطة شركة الهند الشرقية في سنة ١٦٢٢ م .و بالتعاون مع حكومة إيران أن ينتزعوا مضيق هرمز من أيدي البرتغاليين٨٦ وكان التنافس مع الفرنسيين دافعاً إضافياً لتوجه البريطانيين إلى المنطقة فما أن استولى نابليون بونابرت على مصر حتى عينت شركة الهند الشرقية مقيماً دائما لها في بغداد لمجابهة النفوذ الفرنسي ٨٧ ، وكانت الثورة الصناعية دافعاً محركاً للبحث عن أسواق أكثر نفعاً وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر غير البريطانيون اهتمامهم من قناة تصل من المتوسط الى البحر الأحمر نحو فتح طريق بري يصل من موانئ المتوسط الى دجلة والفرات ثم تحول التفكير الى مد خط حديدي عبر وادي الفرات ليصل ميناء الاسكندرونة بحلب وبغداد فالبصرة وهو مشروع لم يكتب له أن يرى النور خصوصاً بعدما نجحت بريطانيا في شراء حصة الخديوي توفيق في قناة السويس التي افتتحت في ١٨٨٩ ثم عادت المنافسة مع ألمانيا هذه المرة لتلهب حماسة بريطانيا لتمكين أقدامها في المنطقة المطلة على الخليج العربي خصوصاً بعد الإعلان في ١٩٠٢ عن

٨٥- انظرهنري فوستر / نشأة العراق الحديث ج١ ص٥٥ .

٨٦- انظر هنري فوستر / المصدر السابق ص٦٥ .

٨٧- انظر المصدر السابق ص٧٥ .

مشروع ألماني لمد السكة الحديدية الى البصرة والكويت . لقد كانت الحاجة ماسة الى النفط لغرض مساعدة الاسطول على تحقيق السيادة على البحار ويوماً بعد الآخر كانت المنافسة بين بريطانيا والدول الأخرى تتصاعد لتقترب من حافة الحرب عند توفر العوامل المؤثرة .

موقف إيران (الأسرة البهلوية)

لقد كانت لإيران اتفاقات مع بريطانيا تتمثل رسمياً في حقوق (شركة النفط الفارسية) البريطانية الجنسية والتمويل والكيان وسبق الكلام عـــن التعاون البريطاني الإيراني في التخلص مـن سيطرة البرتغاليين على مضيق هرمز فيبدو من ذلك أن الحوافز البريطانية كانت جيدة للإيرانيين لتفضيل هؤلاء على البرتغاليين ، ومـــن المتوقع أن حكومة إيران كانت تؤمل الحصول على مكاسب مختلفة الجوانب اقتصادية وسياسية وسيادية أيضاً وعلى الأقل مكاسب اجتماعية تسهل لها عملها من أجل المستقبل في ظل سلطة ستكون أقلَّ عداءً لنشاطات التغلغل الإيراني ، وأقل تلك المكاسب .وربما يكون أعظمها . التخلص مـــن الدولة العثمانية . يشير المؤرخ عباس العزاوي الى أن إيران (أعلنت حيادها فصارت مطية للمتحاربين)٨٨ ولكـن من يراجع أحداث التاريخ يجد أن إيران لم تكن إلا مطية للبريطانيين لاغيرهم برغم كل الكلام عن العنصر الآري في إيران وقرابة الفرس بالألمان .

الحرب العالمية والاستعدادات البريطانية لغزو العراق

يرى المؤرخ عباس العزاوي أن البريطانيين .. (كان تأهبهم للدخول في الحرب من حين اشتركوا في النضال مع الألمان لا لحماية نفط عبادان ، بل لرعاية مصالحهم في هذه الانحاء وفي البلاد العربية الأُخرى .. بل لآمال أكبر من المحافظة)٨٩ وهكذا أرسلت

٨٨- العزاوي المصدر السابق ج٨ ص٦٥٣

٨٩- عباس العزاوي / المصدر السابق ج٨ ص٢٠٣ .

بريطانيا جيشاً برياً وبحرياً من بريطانيا والهند .. الى البحرين لاتخاذها نقطة وثوب ساعة إعلان الحرب . مع أنه قيل أن « بريطانيا كانت تتجنب الإقدام على أي عمل (متسرع) يمكن أن يفسر بأن القصد منه الهجوم على الإسلام « .٩٠

وبعد إعلان الحرب في ٦ تشرين٩١ الثاني ١٩١٤ دخل الطراد (أودِن) شط العرب تتقدمه رافعات الألغام وتعقبه بواخر النقل والزوارق ، وقد تمكنت القوات البريطانية بعد أقل من ساعة من إسكات المدفعية التركية فتقدمت الباخرتان (فايَرفلاي) و (أومایاوفلاریا) .. وزوارق مسلحة بقوة تبلغ ٦٠٠ من المشاة و ١٠٠ من البحارة فاحتلت مواضع الجيش التركي بلا مقاومة وتقدم الطراد (اسبيكل) عشرين ميلاً في شط العرب واستمروا في تعضيد القوة البرية حيث أنجزت عمليات الإنزال بسرعة وبلا مقاومة لتصطدم قواتهم بالعثمانيين في الخامس عشر من تشرين الثاني ثم لتحتل البصرة في اليوم التالي ٩٢ .

آلة الاحتلال تتقدم داخل العراق

في سرد مختصر يبين السيد العزاوي٩٣ نقلًا عن مذكرات جاويد باشا (والي بغداد ، . تم عزله بسبب الخسائر المتلاحقة . ، إضافة لكونه برتبة أميراللواء في أركان حرب الدولة العثمانية) يقول فيها بأن سقوط البصرة والعراق كان بسبب سوء تصرفات الإدارة الاتحادية في الجيش والادارة والسياسية ، وظلمهم وعدم التزامهم بالدستور ، و (دخولهم الحرب التي لامبرر لإثارتها)٩٤ ، كذلك بسبب سخط الانكليز لتدخل الألمان في أمور

٩٠- هنري فوستر / نشأة العراق الحديث ج١ ص٦٦ .

٩١-يشيرفوستر في المصدر السابق ص٩٦ أنه في ٢ من الشهر أعلنت روسيا الحرب وفي ٥ منه أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب .

٩٢-انظر المصدر السابق للعزاوي ج٨ ص٢٠٣ وص٣٠٣ .

٩٣- لقد اخترت كتاب العزاوي مصدراً مفضلًا لأحداث الحرب لأكثر من سبب أولها كونه عراقياً وثانيها كونه معاصر للأحداث وأيضاً لتوثيقه الجيد للأحداث إضافة لمعايشته لها .

٩٤- العزاوي المصدر السابق ص١١٣ .

الدولة العثمانية ومحاولة الفوز بمشروع السكة الحديدية الى البصرة ويذكر أيضاً سبباً آخر هما السفينتين الحربيتين اللتين بنتهما ألمانيا لصالح الدولة العثمانية ، وإعلان الجهاد للعالم الاسلامي الأمر الذي صار يهدد مركز الانكليز في عبادان .

ومن سرد السيد العزاوي المختصر لوقائع الحرب نجد أن العراق شهد معارك شديدة كانت نتائجها متغايرة وأن (الجرائد العراقية) كما يقول كانت بلاغاتها الرسمية وربما يقصد نقلها الحرفي لبيانات الحكومة .. غير صحيحة وأنها (كانت تكتم الأخبار الموثوقة لأنها مخذوليات متوالية)٩٥ ، ونجده يصفها أيضاً بأنها كوارث عظيمة وفظيعة . لكن الجيش العثماني حقق عدة انتصارات على الجيش البريطاني في عدة معارك أكبرها معركة الكوت لكن الجيش البريطاني استطاع تعويض خسائره رغم جسامتها لأن احتلال العراق بالنسبة لبريطانيا كان من الأهمية موازياً لاحتلال الهند بل أكثر من ذلك فقد تخلت عن الهند ولم تتخل عن العراق ، ربما بسبب المزيد من اكتشافات النفط في العراق والخليج العربي . ويذكر المؤرخ أن من عوامل نصر البريطانيين (القدرة المالية والسلاح القوي الذي كان يبعث فيهم الآمال فيعودون الى قوتهم)٩٦ ويبدو لي أن هذه الأسباب وفرت للبريطانيين النصر المعنوي أساساً وأن المدافعين عن البلاد كانوا يتخوفون من الغزاة (بسبب تفوقهم) أكثر مما كانوا واثقين من انتصارهم وليس ذلك غريباً بالنسبة للسكان المحليين الذين اعتادوا أن يروا كل شيء فاسداً وكلَّ إجراء قاصراً وكلَّ عمل من جهة العثمانيين .. لايؤدي الى نتيجة طيبة ، وتشير بعض الشهادات الى أن البريطانيين دسوا الجواسيس والعملاء بكثرة وبمختلف المظاهر ومنها رجال الدين ٩٧ وكان عمل هؤلاء الجواسيس (أو العملاء بتسمية أدق) أن يخذلوا الناس عن نصرة العثمانيين وتفضيل البريطانيين عليهم ، ولا بدَّ هنا أن أذكر أن العلاقة بين بريطانيا

٩٥- ص013 .

٩٦- ص013 .

٩٧- في إحدى هذه الشهادات الموثوقة الشخصية ذكر هذه المعلومة الشيخ جواد الخالصي في شهادة متلفزة على محطة (الشرقية) عام٢٠٠٥ .

وإيران كانت علاقة وئام لذلك أرى أن حياد إيران في تلك الحرب لم يكن إلا ادعاءً مجرداً عن الصدق بعدم التدخل لصالح بريطانيا .

ويبدو أن الإجراءات العثمانية الحربية في العراق لم تتسم بالرصانة والاهتمام الأكيد .. فقد كان من أسباب ضعف الجبهة العراقية سحب الجيوش منها الى الجبهة الروسية ، وإنْ دلَّ هذا على شيء فهو يدل على أن العثمانيين في مختلف العصور كانوا يعتبرون العراق ساحة حرب بديلة متقدمة يدافعون فيها عن بلادهم وقد أثبتت الأحداث أنهم وافقوا على الهدنة وإنهاء المعارك عندما اقتربت المعارك من حدود العثمانيين .

تفيد الوقائع بأن البريطانيين احتلوا البصرة يوم ١٧ من تشرين االثاني كما أسلفنا بعد أن أخلتها القوات التركية قبل ذلك بثلاثة أيام٩٨ ونشروا بياناً الى (شيوخ القبائل وحكام العرب ورعاياهم) بينت فيه (أو ادّعتْ) أنها لا تريد أن تتعرض للدين الاسلامي أوأن تؤذي االسكان بل تريد أن تخلصهم من ظلم الترك وتكبُّرهم وحماقتهم ودعت الجميع الى عدم الالتفات الى دعوات الجهاد٩٩ ، ويبدو أن البريطانيين جهدوا في نشر وإشاعة ما جاء في رسالة لابن سعود الى القائد العثماني جواباً على كتابه يقول فيها «إن الترك باعوا بلادنا وأخذوا أولادنا الى أرضروم ودوابنا وطعامنا ، وأهلكوهم في الحروب .. « .. ويختمها بقوله.. (اقتلوا ضباط الترك وعودوا الى أوطانكم)١٠٠ .. ومع أن الرسالة قد تكون مختلقة أو محرفة لكنها بدون شك فعلت فعلها في بعض النفوس على الأقل ويبدو أن هذه وأمثالها أثرت في نفوس العرب الذين راح كثير منهم يترك القتال١٠١ ولكننا نعلم من أفواه آبائنا وغيرهم من العراقيين من كبار السن أن القبائل التي طالما جهد العثمانيون في ضربها وقتالها قد عاضدتهم في هذه الحرب حتى اللحظة الأخيرة بقتال

٩٨- االعزاوي المصدر السابق ص٣٠٣ .

٩٩- انظر نص البيان على ص٥٠٣ وص٦٠٣ / العزاوي المصدر السابق .

١٠٠- نص الرسالة على ص٧٠٣ من المصدر السابق للعزاوي .

١٠١- انظر العزاوي / المصدر السابق ص٧٠٣ .

البريطانيين وفي هـذه الأثناء كانت بغداد تتعرض للغرق بسبب إزالة السداد التي وفرت لها الحماية من الفيضان ، ثم في معارك وقعت في ٢١ و٢٦ من الشهر ذاته في القرنة وقع قائد الفرقة ٣٨ أسيراً بيد البريطانيين . وفي ١٤ نيسان من عام ١٩١٥ انتحر القائد العسكري سليمان عسكري بك وتوغل البريطانيون فاستولوا على العمارة والناصرية ثم الكوت في ٢٨ أيلول ١٩١٥ رغـم الخسائر التي كانت تلحق بهم ثم انسحب الجيش العثماني الى منطقة (سلمان باك) حيث وقعـت فيها معركة شديدة توهم فيها كل من الطرفين أنه خسر المعركة التي استمرت أربعة أيام ابتداءً من ٢٢تشرين الثاني ١٩١٥ فانسحب البريطانيون الى الكوت ، ومن الملحوظ أن البريطـانيون استخدموا الطائرات في هذه الحرب بما لها من تأثير نفسي هائل على المقاتلين وعلى السكان ، أما العثمانيون فاستعرضوا أسرى القوات البريطانية

وتحدثوا عـن انتصارات في (جناق قلعة) في القفقاس.. وكان لاستسلام القوات البريطانية التي طال حصارها في الكوت نتائج رفعت المعنويات العثمانية بدرجة واضحة .كان من الأحـــداث الهامة على الصعيد المحلي في عام ١٩١٦ وفي ذكرى إعلان الدستور في ٢٣ تموز افتتـاح أول شارع حديث (جادّة) في بغداد طوال العهد العثماني الذي امتد مئات من السنين ، وكـــانت سنوات الحرب قد شهدت تسعير بعض المواد الأساسية (الغذائية) والعمل بقانون المسكوكات وفي هذا العام (١٩١٦) أُمِر العراقيون بتسليم ما عندهم من الذهب وبالتعامل بالأوراق النقـــدية حيث (هُددوا بلزوم تقديم الذهب الى رئيس لوازم الفيلق ومن وجِدت عنده هُدمت داره)١٠٢ وهكذا تم سحب العملات المعدنية من أيدي الناس . وفي الوقت الذي كان الأهلون يعانون مـــن الضائقة أصلاً كما هو متوقع وطبيعي كانت التبرعات تجمع من الناس في هذا الوقت بينما نجد في أخبار الوالي (خليل بك) انشغاله بالمومسات١٠٣ .

١٠٢-العزاوي المصدر السابق ص٣٤٣ .

١٠٣-انظر المصدر السابق ص٤٤٣ .

وبالنظر للجوء الحكومة الى التعسف في سياستها كما هي الحال منذ القدم كانت بعض القبائل تقوم بالعصيان كالذي حدث في المناطق المحيطة بالحلة فردّ الأتراك بإرسال الطائرات التي قامت بإلقاء القنابل عليهم .

ثم عزز البريطانيون قواتهم وتقدموا باتجاه بغداد مـوجهين ضربات مؤثرة الى القوات العثمانية ، واستمروا على تقدمهم حتى دخلوا بغداد في ١١/آذار من سنة ١٩١٧ بعدأن قام العثمانيون بإرسال قسم مـن قوات بغداد الى الحدود الإيرانية١٠٤ و كانت الحكومة العثمانية قد أمرت بنقل السجلات والنقد والمهمات الأخرى الى سامراء في ٢٧ شباط وفي ٦آذار أمـرت الموظفين بالنزوح فسافر كثير منهم بعدما اقتنعوا أن قوة الدفاع لن تصمد أمام قوة العدو (كان تعداد القوات المدافعة ٥٠٠٠ مقاتل فيما كان تعداد قوة العدو يبلغ ٢٠٠٠٠٠ جندي)١٠٥ ، وانسحب الجيش العثماني في جبهة الفرات من السماوة الى الفلوجة في ١٧ آذار وظل ينسحب كلما تقـدم الجيش البريطاني وفي هذه الأثناء سقطت دمشق بيد الجيش العربي١٠٦ . وانسحب الجيش العثماني مـن سامراء ثم من تكريت وكان تقـدم البريطانيين وئيدا ومترددا خشية من حركة التفاف تكبدهم خسائر وهكذا كانت الجبهة في نهاية ١٩١٧ في (دايت) في الشمال و(هيت)في الغرب وبالطبع كان القتال فيها يجري بين البريطانيين وبين العثمانيين ، فيما كانت القوات الروسية تحاول التغلغل الى العراق مـن جبهة السليمانية وذلك الى أن عقدت معهم الهدنة في ٧كانون الأول مـن عام ١٩١٧ ١٠٧ . وفي العام الجديد احتل البريطانيون هيت ثم (قره تبه) ثم تقدمـوا لاحتلال كركوك ثم (آلتون كوبري) ثـم لاحقوا الجيش العثماني الذي انسحب الى الشرقاط حتى استطاعـوا في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨ أن يقطعوا خطوط إمداده وأصاب الجيش العثماني التبعثر والاضطراب لقلة إمداداته وسقطت أربيل بأيديهم بعـد

١٠٤- ص743 .

١٠٥- ص053 .

١٠٦- انظر / العزاوي المصدر السابق ص١٥٣ .

١٠٧- ص353 .

سقوط راوندوز١٠٨ . وأخلى العثمانيون الموصل وما حولها وصولًا الى الجزيرة ونصيبين بعد أن وجّـه لهم البريطانيون إنذاراً قوياً بالإنسحاب فدخلها البريطانيون (رغم الهدنة التي أُعلنت في الأول من تشرين الثاني) ، وذلك في ٨ تشرين الثاني ليتأكد لنا أن العثمانيين عاملوا العراق على أنه غنيمة ووقاية لبلادهم وليس مسؤولية على عاتقهم ..

الانتداب البريطاني على العراق

أصـدر الجنرال مود قائد القوات البريطانية التي احتلت العراق بياناً الى العراقيين لايخلو مصدر حــول تلك الـفترة من الحديث عنه تقريباً هذا البيان « يبدأ بالقول بأن البريطانيين قد جاؤا ليس بصفـة فاتحين بل محررين١٠٩ .. «.. الخ وتحدث فيه عن نهضة بغداد وعن رغبة الحلفاء في تمكين العنصر العربي من استعادة أمجاده ومكانته الحضارية ، لكن بعكس ما ادعاه فإن الـجنود البريطانيون وضباطهم سرعان ما أظهروا من الخشونة والــتعسف مع المواطن العراقي ما نبه العراقيين الى طبيعة المحتل الجديد الذي يدعي أنه جاء لتحريرهم فإذا هــو (يتسلطن) عليهم بدلاً من سلاطين العثمانيين ، وعندما نشرت الصحف الـعراقية مبادئ الرئيس الأمريكي ولسون والتي كان من بينها مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها قويت آمــالهم بالحصول على حريتهم ثم صدر بيان بريطاني فرنسي يتحدث عن منح العـرب حريتهم لكن لم تلبث بريطانيا أن أعلنت أنها وافقت على (قبــول) انتدابها على العراق وفلسطين وشرقي الأردن فيما فسحت المجـال لقوات ابن سعود للتقدم واحتلال الحجاز بعــد أن قامت بنفي الشريف حسين .

يبدو أن الاتفاق على نظام الانتداب عقد عام ١٩١٦ وذلك على الأخص بين بريطانيا و فرنسا مع أن مجلس عصبة الأمم قد وافق على نظام الانتداب وعندما تم طرد القوات العثمانية برز الخلاف بين فرنسا وبريطانيا وحاولت الولايات المتحدة أن تدلي بدلوها

١٠٨ص353 .

١٠٩فوستر / المصدر السابق ص٢٠١ .

وتقول رأيها في مصير الأراضي التي تم (تحريرها) .. لكن الصوت الأمـريكي لم يجد أذناً صاغية في هذه المسألة عدا أن المصالح الأميركية أُخذت بنظر الاعتبار فعلاً .

يلاحظ أن البريطانيين والفرنسيين طال ما تحدثوا عن تحرير الشعوب التي خضعت طويلاً للأتراك ، ولكن هذه الوعود كانت مجرد كلام في مهب الريح والنوايا التي سرعان ما تكشفت كانت تنطوي على الأطماع وعلى العداء المضمر لهذه الشعوب وتحول الحديث عن حضارة العرب المجيدة الذي كان يتكرر أيام الحرب الى حديث عن جهل العرب وأنهم لايصلحون للاستقلال والحرية وحاجتهم الى وصاية دول الغرب عليهم متجاهلين الـروح القومية التي عملوا على بعثها لدى العرب والنزوع الى التحرر الذي هيجوه في نفوس العرب وكأن الشعب العربي آلة يحركونها كمـا يشاؤون . وهـكذا تم في شهر تموز ١٩١٧ ترقية السيد برسي كوكس الى وظيفة المندوب المدني بصلاحيات الملك في مجـال القوانين والإجراءات المدنية ،وفي نهاية العام ١٩١٧ كان في المدن العراقية الكبيرة عشرة حكـام عسكريين بريطانيين١١٠ . وراحت بريطانيا تواجه ما لم تكن تتمنى مواجهته من التبعات والصعوبات المتعلقة بمسؤلية من يتولى حكم البلاد الذي عليه تلبية الحاجات البشرية الأساسية وأولهـا توفير الغذاء بالمحافظة على استمرار النشاط التجاري وبصيانة وتوسيع النشاط الزراعي إضـافة الى ما يتطلبه الوجود العسكري ونشاطات الجيش من شق الطرق وصيـانتها وإقامة المنشآت الخدمية الضرورية لتسهيل النقل والاتصالات . وكان عليها أيضاً تلبية طموح الأقليات الدينية وتطلعها لاستغلال الحكم البريطاني في تحقيق مكاسب متنوعة خصوصاً على الصعيد الاجتماعي ، وللإنصاف فلا بد من القول أن الإدارة البريطـانية نجحت في تقديـم خدمات كثيرة لكنها لم تكن لتلبي طموح العراقيين أوتقنعهم على الأخص بالـتخلي عـن حلم التحرر والاستقلال ، ويجب الاعتراف على وجـه الخصوص أن البريطـانيين لـم يقفوا عقبة في وجه تطلع العراقيين المتنورين الى تحسين وتحديث وتوسيع عملية

١١٠- ص801 .

التعليم إن لم يكونوا ساعدوا على تحقيق جانب كبير منها .. ولكن المقاصد الدفينة لم تكن القيام بأعمال البر والاحسان وهذا ما توضحه السياسة البريطانية المتشبثة بوجودها في العراق ..

النشاط السياسي في العراق قبل الاحتلال وبعده

اذا كانت أوضاع العراق متردية في أكثر أو جميع مجالات الحياة في العهد العثماني رغم المحاولات التي جاءت بين الحين والحين لإصلاح الأوضاع فإن العراق لم يكن خلواً من النشاط السياسي فقد شملته مثله مثل بقية الأقطار العربية حركة النشاط السياسي العثمانية فقد شارك العراقيون وغيرهم من العرب في الأحزاب العثمانية وأولها حزب الاتحاد والترقي كذلك شاركوا في حزب الحرية والإئتلاف وحزب الإصلاح . وعندما يئس العرب عموماً من إقرار الترك بحقوقهم أسس الضباط العرب في الجيش العثماني حزب (العهد) الذي كان يهدف الى « الاستعداد للانتفاضة بالسلاح والاستعانة بالجنود من أبناء العرب عند سنوح الفرصة « ١١١ . كما تأسس حزب الاستقلال منبثقاً من كيان جمعية (العربية الفتاة) السرية وفي مصر نشأ حزب اللامركزية وكان معظم هذه الأحزاب (يرمي الى جمع كلمة العرب وصيانة حقوقهم ولم تفكر في الافتراق عن جسم الدولة العثمانية بل في إيجاد كيان سياسي للعنصر العربي ومساواته بالعنصر التركي في جميع الحقوق وجعله يدير شؤونه الداخلية على يد موظفين من أبنائه «)١١٢ . ولو كانت الدعوة الى الانفصال في ذلك الوقت لصدقت على هذه الأحزاب تهمة التأثر بالأجانب (الكفار) وتدخلاتهم ولكن هذه المطالب منطلقة من ملاحظة الحاجة والمعاناة والبحث بوعي عن معالجات وحلول ويبدو أن الموازين المتعلقة بعدد السكان ومساحة البلدان والاستعداد للقتال قد مالت الى جانب العرب بشكل أشعر الشخصيات البارزة بالثقة العالية بالنجاح في تحقيق أهدافهم في وقت فريب وأنه ما

١١١- جعفر العسكري / مذكرات جعفر العسكري ص٥٦١ .

١١٢- العسكري / المصدر أعلاه ص٧٦١ .

عليهم إلا العمل بجد من أجـل شعبهم ويبدو أن الترك كانوا يتخوفون من ظهور كيان عربي للاسباب التي ذكرناها وملاحظتهم أن العرب خصوصاً القبائل عصية على الخضوع للحكومة العثمانية رغم هالة الخلافة التي صنعها السلاطين لأنفسهم فكيف بهم وهم يشهدون تمرد الترك أنفسهم على تلك الخلافـة خصوصاً أن العرب لم يتخلوا عن ثقافتهم وذكريات حضارتهم التليدة التي كان الترك مـن تلاميذها وصنائعها قبل أن يتمردوا عليها ١١٣. وكانت العاصمة العثمانية بما فيها من المدارس العالية .. الحربية والحقوقية ..على وجه الخصوص محط أنظار وتطلع أبناء العائلات البارزة و الطلاب العراقيين النـابهين والطامحين إلى ارتقاء المناصب الحكومية ، لذلك كان الكثير من العرب والعراقيين على وجه الخصوص يعيشون في العاصمة ويلحظون التطورات ويستشعرون النشاطات الجديدة خصوصاً مـا يتعلق منها بالعراق والبلاد العربية ويطلعون على ما يدور في العـالم ، ولم يلبث هؤلاء أن انتظموا في صفوف جمعية الاتحاد والترقي التي تبنت الدعوة إلى الاصلاحات الدستورية ونجحت بنشاطات أعضائها البارزين في المجالات الإدارية والعسكريـــة والسياسية في فرض الدستور على السلطان وتشكيل الحكومة وعزل السلطان فيما بعد وكان لها فروع عديدة في المدن العراقية لكنها لم تلبث عند وصولها إلى السلطة أن اتبعت سيـاسة عنصرية ترمي إلى صبغ الشعوب العثمانية بصبغة تركية وحاربت القوميات غير التركية في الدولة العثمانية ومنها العرب وكانت إجراءاتها في هذا الباب أكثر تعسفاً من الحكم السلطـــاني فانصرف الناشطون العرب عن الانتماء إلى صفوفها وراحوا يخوضون مجالات العمل السياسي المناوئ السري أو العلني بغية المحافظة على الهوية والحقوق العربية أو تحقيق الاستقلال وساند بعضهم (الحزب الحر المعتدل) فيما ساند آخرون حـزب (الحرية والائتلاف) الذي نادى باللامركزية وكانت له فروع في المدن العربية وكـانت فروعه العربية تنسق فيما بينها العمل باستقلالية عن المركز وتصفها بعض المصادر بأنهـا اتبعت نهجاً قومياً عربياً خالصاً١١٤ كذلك تم

١١٣- انظر المصدر والصفحة السابقين .

١١٤- انظر / العراق في التاريخ ص٧٤٦ .

تأسيس أحزاب وجمعيات عربية مستقلة في البلاد العربية مثل جمعية المشورة والنادي الوطني العلمي وجمعية العلم السرية في الموصل وجمعية البصرة الإصلاحية بزعامة السيد طـالب النقيب التي كانت أقوى التنظيمات وأكثرها نشاطا في العراق. ولكن يبدو أن أخطر الجمعيـات السرية هي جمعية (العهد) التي أسسها ضابط عربي هو المصري (عزيز علي) والتي انتمى اليها الكثير من الضباط العرب وأكثرهم من العراق والتي قدرت المصادر الاستخبارية البريطانية عددهم بحوالي (٣٠٠) ضـابط وساندت الثورة العربية ودعت إلى استقلال العراق وعدم إخضاعه للانتداب البريطاني وكانت السلطات العسكرية البريطانية في العراق تعتبرها مصدر التهديد الأساس والمحرض علـى الثورة ضد البريطانيين١١٥ في العراق والتي شملت بنشاطاتها الحجاز والشام .

العراق يشتعل بالثورة

إذا كان الأمير العربي الذي اعتبر نفسه ملكاً على الحجاز وجديراً بالخلافة العربية قد وافق على الاستعانة بالبريطانيين أو التحالف معهم في حربهم ضد العثمانيين لتحقيق لأهدافه أو أهداف العرب بتحقيق حريتهم السياسية ونيل الاستقلال الذي يضمن حقوقهم القومية ويعبر عنها فإن العراقيين لم يذهبوا بعيداً في هذا الشوط ولم يطلبوا إرسال قوات لتحرير بلادهم ،فقد كانوا « لاينتظرون العون مـن أحد لتحريرهم بل يفضلون الاعتماد على أنفسهم خشية أن يسيطر عليهم مستعمر جديد «١١٦ . وهذا ما كـان يخطط له الناشطون العراقيون كما وجدنا من تعليق السيد جعفر العسكري في الصفحات السابقة حول أهداف الضباط العرب المنتسبون إلى جمعية العهد .ولكن البريطانيين كانت لهم مواقف وآراء مغايرة مبنية على ترتيبات مسبقة تقف وراءها نشاطات الجمعيات اليهودية العالمية (الصهيونية)وكان المفوض المدني البريطاني قد كتب يقول

١١٥- انظر / فؤاد قزانجي / العراق في الوثائق البريطانية ٥٠٩١ ـ ٠٣٩١ ص٥١١ وما بعدها .
١١٦- فوستر / نشأة العراق الحديث ج١ ص١٧ .

(إن العناصر التي علينا أن نشجعها أكثر مايمكن هي الطائفة اليهودية في بغداد)١١٧ ليس ذلك فقط بل نلاحظ أن بريطانيا ركزت جهدها على احتلال العراق وفلسطين وعند البحث وراء الأسباب نعثر على مذكرات رفع إحداها فرع برلين للتنظيم اليهودي العالمي تقول (الأماكن الملائمة لمشروعنا هي شط العرب والأناضول وسورية وفلسطين للاستيطان) وجاء فيها أيضاً (ومع أن العراق كبير بما يكفي لاستيعاب عشرة أضعاف ما في العالم من يهود فإن برنامجنا يتضمن استيطان اليهود في قبرص ومصر)١١٨ ونجد التصريح بوضوح بما أمله أحد زعماء اليهود (بأن يصبح تحقيق مشاريع إقامة دولة يهودية مستقلة ذاتياً في بلاد ما بين النهرين أمراً ممكناً)، ..لقد كان الميل العراقي العام نحو القومية العربية دافعاً أساسياً و (مسؤولاً إلى حد كبير عن ثورة العراقيين في ١٩٢٠ إضافة للاشمئزاز من الانتداب البريطاني الذي أعلنت بريطانيا القبول به في شهر آيار ١٩٢٠)١١٩ وكانت قيادة جمعية العهد أو حزب العهد تنتظر لترى شكل الحكومة التي ستمنح إلى سوريا قبل إعلان مطاليبها بالنسبة إلى العراق ١٢٠ حسب تقرير السفير البريطاني في دمشق عن نشاطات حزب العهد العراقي . وهكذا اشتعلت الثورة وتأجج لهيبها حتى شمل العراق عامةً وكانت أسلحة العراقيين في غاية البساطة وأكثرها تطوراً البندقية على قلة وجودها ، فيما استخدمت القوات البريطانية أسلحتها المتطورة وصولاً إلى الطائرات ، ومع ذلك فإن الخسائر التي تكبدتها بريطانيا على أيدي العراقيين أجبرتها على إعادة النظر في تعاملها مع العراقيين ، لكنها كانت تريد الحل الذي يرضي العراقيين ويوفر لها في نفس الوقت فرصة التحكم بمصير ثروات البلاد .

١١٧- حنا بطاطو ـ العراق / ج١ ص٧٤٣ .

١١٨- حنا بطاطو ـ العراق ج١ ص٥٢٣ .

١١٩- فوستر / المصدر السابق ص٩٥١ .

١٢٠- انظر فؤاد قزانجي / المصدر السابق ص١٢١ وص٢٢١ .

obeikandl.com

حكومة العراق العربية ..ولادة العراق الحديث

لقد بات واضحاً للقارئ الكريم موقف بريطانيا من الدولة العثمانية ومصالحها إن لم نقلْ أطماعها في العراق على وجه الخصوص عدا أطماعها أو مصالحها في عموم المنطقة و أثر ذلك في إعلانها الحرب على الدولة العثمانية وتمهيدها أو تنسيقها لذلك العمل بالإتفاق مع الشريف حسين العلاقات التي أقامتها مع أبنائه الذين كانوا يتولون قيادة القوات العربية التي يتألف منها الجيش العربي في معاركه ضد الجيش العثماني في الجزيرة والشام وأبرزهم فيصل بن الحسين والشريف عبد الله بن الحسين ثم الشريف زيد بن الحسين وفي الوقت الذي أعلن رجالات الشام الشريف فيصل ملكاً على سوريا واتجهت الأنظار إلى اختيار الشريف عبد الله ملكاً على العراق فاجأ البريطانيون السكان في العراق بإعلان الإنتداب كما أسلفنا و في سوريا بالتخلي عن مساندة فيصل لصالح فرنسا التي احتلت قواته دمشق وطردت فيصلاً الذي أصبح ملكاً بلا تاج ولا مملكة بل مجرد شريف أو أمير حاز على حب وتأييد القوميين العرب الذين ظلوا يتمسكون بحلم المملكة العربية الواحدة أو مجموعة الممالك المتحدة عندما نشبت الثورة الشعبية العراقية العارمة التي لم تنجز هدفها بطرد البريطانيين والقوات التابعة لهم لعدم وجود قيادة موحدة تنسق عمليات الثورة وتوجه نشاطاتها وكون هذه الثورة ثورة عفوية بشكل عام . وقد حدثني الشيخ ظاهر الزوبعي١٢١ حفيد الشيخ ضاري (الذي قتل العقيد (لِجْمَن)

١٢١-تأجريت معه لقاءً صحفيا لحساب صحيفة لم تستمر على الصدور وذلك بعيد الاحتلال الأمريكي للعراق وفي صدى هذا الاحتلال .

أحـد ضباط الجيش البريطاني ذوي النشاط السياسي في العراق أثناء أحداث الثورة وهو حادث كان له صدى أكيد في العاصمة البريطانية) .. أنه تم عقد مؤتمر لعشائر العراق في مدينة الرمادي قبل الــثورة وأن (لجمن) حضر المؤتمر وحاول اللعب على موضوع الفوارق الطائفية بين العشائر السنّيّة والعشائر الشيعية فباءت محاولته بالفشل وكان للشيخ ضاري دوره في ذلك الفشل كما قـال حفيده الشيخ ظاهر ، وهذا كما يبدو أبعد ما وصل إليه التنسيق بين العشائر العراقية في مـوضوع الثورة وهو وحدة الموقف العراقي وإن كان هذا الموقف مهماً بالنسبة لموضوع دراستنا .

وجدت بريطانيا نفسها في موقف مزعج فهي بين خيارين صعبين لايمكنها قبول أيّ منهما .. فإما الانسحاب من العراق وهـذا يعني التضحية بكل آمالها أو مطامعها التي طالما تمنت أن تباشر العمل بأقصى سرعــة على تحقيقها .. وإما تحمل الخسائر التي لم يحتملها الرأي العام البريطاني والصحافة البريطانية التي تنطق عنه١٢٢ ، فوجدت الحكومة البريطانية نفسها مجبرة على القبول بحل وسط يكون لـه شكلية الاستقلال (بتشكيل حكومة محلية ذات طابع عربي) وفي نفس الوقت الإمساك بخيوط اللعب بعدم منح هذه الحكومة صلاحيات حقيقية وبذلك بدأ البحث عـن شخصية يمكن أن يرضى بها الطرفان ، وتمت المفاضلة بين عدد من الشخصيات العراقيـة وغير العراقية بينها فيصل للحصول على تاج مملكة العراق المنتظرة فحاز فيصل على الأرجحية ، وؤعِد بالاستقلال ، وفي نفس الوقت كان العراق يشهد مطالبات بملك عربي في الـبلاد بعد أن تم تعيين حكومة مؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب الذي يرجع نسبه إلى عائلـة الشيخ عبد القادر الكيلاني ذات النسب الذي ينتهي إلى الحسن بن علي (رضي الله عنهما) والذي سبق له أن كـان عضواً بارزاً في مجلس ولاية بغداد قبل الاحتلال البريطاني الذي يترأسه الوالي العثماني .واعتقد برسي كوكس أن هذه الحكومة ستعمل على إنهاء الثورة واستتباب الأمن في البلاد وأن العراقيين سيخدعون بها وستكون في

١٢٢- انظر فوستر المصدر السابق ص٩٣١ .

نفس الوقت آلة تنفذ أوامره لكن ذلك لم يتحقق ، ومع أنها خلقت طبقة من الموظفين فإن هؤلاء كانوا بشكل رئيس يتكونون من أبناء الأقليات غير المسلمة وغير العربية ومن الفاسدين كما لجأت الى سحب الأموال من الخزائن حتى ما كان منها يخص الأوقاف ١٢٣ وكانت الأوضاع مرشحة للانفجار.

و جـاء وصـول فيصل إلى بغداد بمثابة تأكيد لوعود بريطانيا بمنح العراق حكومة مستقلة ، وتعهد فيصل في خطاب تتويجه بتأليف (حكومة دستورية) للعراق وكان قد وافق على شرط العراقيين بأن يكون ملكاً دستورياً ذا سلطات مقيدة بالدستور١٢٤ وقد ورد هذا الشرط في المعاهدة المعقودة بين المـلك فيصل وبريطانيا في ١٩٢٢ وتوِّج فيصل في الثالث عشر من تشرين الأول من العام ذاته ، كما اشترطت الـمعاهدة وضع قانون أساس يصادق عليه مجلس تأسيسي منتخب والـتزمت بريطانيا بتقديم المشورة ونصت المعاهدة على التزام الملك فيصل بالمشورة البريطانية . وتعهد الملك في خطـاب تتويجه بمواصلة العمل لنيل الاستقلال التام .

وتـم بعـد ذلك تشكيل المجلس التأسيسي ليوافق على الدستور المقترح واستمرت المواجهات السياسية بين العراقيين (بالتضامن بين الملك والحكومة)وبين البريطانيين الذين واجهوا إصراراً عراقياً على عدم التصديق على المعاهدة التي أصرَّ البريطانيون على فرضها مستغلين موقف تركيا المطالب بضم ما كان يعرف بولاية الموصل وهو ما لم يمكن أن توافق عليه بريطانيا ولا العراقيون بالطبع وتم التصديق على المعـاهدة بعد مـا يشبه الإنذار النهائي وجهته بريطانيا إلى الملك ، لكن كثرة الاحتجاجات على المعاهدة فتحت باب التفاوض لتعديلها على طريقة « خُذ ثمَّ طالِبْ « التي نادى بها الملك فيصل ،وذلك بعد أن صادق عليها المجلس التأسيسي تحت تهديد بريطاني مبطن بالتخلي عن

١٢٣- انظر الحسني /تاريخ العراق السياسي الحديث الصفحات١٠٢الى ٣٠٢
١٢٤- انظر خطاب الملك فيصل الملحق في نهاية الجزء الثاني من كتاب فوستر أعلاه .

ولاية الموصل لصالح تركيا١٢٥ موجه إلى الملك فيصل.

وبذلك حقق الملك فيصل وحكومته الاستقلال الشكلي للعراق ، والغريب أن بريطانيا فيما بعد أصبحت أكثر تصلباً في كل جولة جديدة من المفاوضات التي استمرت سنين طويلة ولو دققنا في المسألة لزال الاستغراب إذ كانت بريطانيا ولاشك ترى أن آمالها (الاستعمارية) أصبحت قريبة المنال بل في متناول اليد وكان فيصل عالما بالطبع بما يريده البريطانيون ، فقد علق مثلاً على مقترحات بريطانية بإدخال ضباط بريطانيين في الجيش العراقي قائلاً « إن الخطط قد أعدت لرغبة في وضع العراق تحت سيطرة بريطانية مباشرة وذلك بنتيجة تنامي المصالح البريطانية في العراق١٢٦ « . وتوالت المعاهدات والتصديق عليها وتعديلها باتفاقيات لاحقة بين فترة وأُخرى . ، وفي السادس من شهرحزيران تم توقيع الاتفاقية البريطانية العراقية التركية مما حسم مسألة الموصل التي سبق أن اتخذت عصبة الأمم حولها قراراً لصالح العراق. وفي ٣ تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ صوتت عصبة الأمم لصالح انضمام العراق إلى العصبة .

الحركة الوطنية العراقية والاضطراب السياسي

بدأت الحركة الوطنية التي انبثقت من رحم ثورة العشرين الشعبية ممثلة بالسياسيين الذين طالبوا بالاستقلال ورفضوا الانتداب والامتيازات والمعاهدات البريطانية .. بدأت تواجه مناورات بريطانيا وضغوطها لتصديق المعاهدات وتقديم التنازلات بينما اختارت بريطانيا طريق الضغوط بدلاً من المواجهات العسكرية واعتبار المواجهة آخر الحلول ولكنها لم تتأخر كثيراً ففي فجر يوم ١٢ آب كبست الشرطة دور كل من :محمد جعفر أبو التمن ،يوسف السويدي ،الشيخ أحمد الداوود ، علي أفندي ، فهرب المذكورون باستثناء الشيخ أحمد الداوود الذي نفي الى جزيرة هنجام١٢٧. وكانت المناورات

١٢٥- انظر ص٦٣١ إلى ص٧٤١ من كتاب الملك فيصل والانكليز والاستقلال .
١٢٦- د .كاظم نعمة / الملك فيصل الأول والانكليز والاستقلال ص٨٦١ .
١٢٧- انظر عبد الرزاق الحسني ص٣٦١ وما بعدها

والتحركات السياسية للزعماء ورؤساء الأحـــزاب العراقيين الذين وصلوا الى سدة الحكم شيئاً جديداً على الجماهير التي فجرت الثورة وأغلبها من العشائر وكان هؤلاء في وضع لايحسدون عليه فمن جهة كان عليهم محاربة بريطانيا والتخلص مـــن سيطرتها ومن ناحية ثانية كان عليهم استرضاءها بين الحين والحين لكسب تأييدها في قضايا مختلفة تتطلب المصلحة الوطنية منهم العمل على كسبها مثل قضية الموصل ، وبما أنه لا يمكن اعتبار هؤلاء الزعماء منزهين عن المصالح الشخصية لذلك كانت الحركة الوطنية مِحَقَّةً في ارتيابها من المناورات وهذا ما ولّدَ (وأنا أقصد المناورات من جهة والارتياب من الجهة الأخرى) الانشقـاق في الصف الوطني وأعطى الفرصة لتوجيه التهم بالعمالة للبعض مثل المرحوم عبد المحسن السعدون أو اتهام البعض بالتقلب في المواقف مثل السيد ياسين الهاشمي ، بل ربما دفع بعض السياسيين فيما بعد إلى تبني المواقف البريطانية مثل نوري السعيد وغيره في المراحل اللاحقة مـن تاريخ العراق بعد أن كان السياسيون وعلى رأسهم الملك فيصل يتبنون المواقف الوطنية ويبذلون أقصى ما يستطيعون لتلبيتها . فلما توفي فيصل (رحمه الله) ازداد الاستقطاب في مـواقف السياسيين فانقسموا في اتجاهات شتى ، واستطاعت القوى اليسارية أن تجمع حولها الجماهير يوماً بعد يوم .